

دور الدين في المجتمع العربي التقليدي

The role of religion in traditional Arab society.

د. فرحات نادية جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف.

nadiaferhat@yahoo.fr

الملخص:

إن الحديث عن الدين كظاهرة اجتماعية يقودنا إلى فكر إميل دوركا يم عند دراسته للمجتمعات البدائية أين استخدم الدين من قبل جماعة صغيرة للسيطرة على كل فئات المجتمع، والأصل أن الدين شريعة سماوية انزله الله لتنظيم علاقات الإنسان بالآخر للحفاظ على حقوق كل واحد وأمنه وسلامته بهدف إنشاء مجتمع سليم وسوي خالي من مختلف الآفات والعلل، إلا أن الواقع يعكس نظرية دوركا يم في استخدامه للسيطرة على الآخر وإخضاعه لتحقيق أهداف ومصالح خاصة تتنافى كلية مع أهداف الدين وغاياته في المجتمع.

الكلمات المفتاحية: الدين، ادة السيطرة، اداة تبريرية، الظاهرة الاجتماعية

Abstract :

The role of religion in traditional Arab society Speaking about religion as a social phenomenon leads us to the thought of Emile Durkheim when he studied primitive societies where religion was used by small groups to control all groups of society. Originally, religion is a heavenly law sent down by God to regulate human relations with each other to safeguard the rights, security and integrity of everyone. Free of various scourges and misfortunes, but reality reflects the Durkheim theory in the use of religion to control and dominate others for achieving special goals and interests are completely incompatible with the objectives of religion and its role in society.

مقدمة:

يعتبر الدين عامل مهم واساسي في حياة الافراد والمجتمعات فهو ينظم حياة الافراد ويضبط سلوكياتهم عند تفاعلهم حتى لا يتعدى أحد على الاخر سواء كان شخصا طبيعيا او معنويا وبذلك يحقق العدالة الاجتماعية، الا ان طريقة استخدامه وتأويل نصوصه اخذت اشكالا عديدة ومختلفة باختلاف اهداف ومصالح الافراد والمجتمعات التي تستخدمه لتبرير سلوكياتهم ومواقفهم وهذه الخاصية مرتبطة بشكل كبير بالمجتمعات التقليدية.

من هنا نطرح الاشكال التالي: كيف يمكن ان يتحول الدين الى اداة السيطرة؟

وكيف يمكن ان تستخدمها السلطة كأداة تبريرية وتمويهية؟

تعريف الدين:

يعتبر الكثير من علماء الاجتماع الدين ظاهرة اجتماعية، تنشأ من مجتمع أمثالاً ليميلدوركايم والواقع ان الدين ظاهرة اجتماعية تؤثر وتتأثر

بكل الأنظمة المحيطة به الاقتصادية والسياسية والثقافية ويعرف الدين بأنه "الالتزام بعقيدة الدينية -أو نحلة- معينة وأداة فرائضها ومناسكها وطقوسها وشعائرها وكل مايتصل بها من العبادات نحو المعبود المعترف به من هذا الدين أو النحلة ويترتب على هذا الالتزام الديني من تطبيقات تتصل بالشروط الدينية لكافة العلاقات والمعاملات في المجتمع" (1)

وهناك من يرى إن الدين هو السياق الذي يتجدد فيه الإنسان مع هو فوق إنساني "

خصائص الدين كظاهرة اجتماعية:

1-الدين ذو خاصية موضوعية

2-الدين ذو خاصية تلقائية

3-الدين ذو خاصية القهر والالتزام

4-العمومية إحدى خواص الدين

5-الدين ذو خاصية الجاذبية

6-خاصية الترابط

7-الدين ذو خاصية الإنسانية

الدين والتغير الاجتماعي (2):

(h.gllner)يقول جيلنر:

ان الاسلام تكثر شمولاً من الديانات الاخرى من عدة جوانب

أولاً: ان يحصر دعواه بحدود إقليمية معينة.

ثانياً: فهو لا يحصر تطبيقه في بعض النظم دون غيرها.

ثالثاً: لأنه ليس له نوع من الاستقلال الوجودي في النصر الموحى به من الملاحظ في تاريخ الشعوب ولا سيما الدولة الاسلامية ان الدين والاتجاهات الثورية متلازمين، فهو باعث للتغير ويزداد في اوقات ومواقف الازمات، فهو من خلال التعاليم والقيم التي يحملها تبعث بالحياة الاجتماعية الى مستوى أرقى من الرقي والازدهار وانتشار القيم الاخلاقية السامية التي تدعو الى العمل لصالح المجتمع اولاً ثم المصالح الشخصية.

ثانيا ان لم تتعرض على مصالح الامة، ولقد أكد ماركس يفسر في دراسة للدين على دوره في احداث التغيير ودور النبي كقائد كرزمي مسبب للتغيير فيرى "ان الانبياء دورا هاما في الثورة على النظام القائم فهو يميز بين نوعين من الانبياء، النبي الاخلاقي، والمثالي.... فالنبي المثالي يعطي ويوضح طريق الخلاص للأفراد بينما يتيح النبي الاخلاقي الفرصة للخلاص الاجتماعي" (3)

ومن جهة اخرى يعتبر الدين كمعرف للتعبير الاجتماعي في بعض المجتمعات، فلقد اعتبر دوركايم "ان المجتمع يخلق نوعا من التقليدية الدينية، وذلك عندما يحافظ الافراد دون تغيير على ما يشعرون بالخشوع نحوه (المقدس) (4) فقد يقف الدين في ظل بعض الظروف والخصائص الاقتصادية والسياسية والثقافية عائقا امام التغيير الاجتماعي، ومن العوامل التي تجعل الدين عائقا امام حدوث التغيير الاجتماعي مايلي: (5)

- قد يرجع هذا الى ان الدين قد يكون معارضا للتغيير بعد ان تستغرق الكرزما وقيادتها في الروتين اليومي .
- قد ترجع اعاقا الدين للتعبير، الى ان الدين غالبا ما يطور تنظيم ديني قوي يتميز بالهيراكتية الدينية، ولا شك ان مثل هذا التنظيم يمنع الى تعبير

- ان هيئة الدين في اي دين تحاول مقاومة اي تغيير خشية ان بعض هذه الهيئة قوتها وهيبتهما لدى العامة ان رجال الدين قد يكونوا من الذين يمتلكون الثروات ومن ثم فانه مقاومة التغيير حماية لهم ومحاولة البقاء على الوضع الراهن

أثر الدين في حياة الافراد والمجتمعات:

ان تطبيق الدين الصحيح واتباع تعاليمه له بالغ الأثر في حياة الافراد والمجتمعات، لأنه يحقق الكمال الانساني للبشرية والسعادة التامة في الدارين للأفراد والجماعات والمجتمعات،

1- أثر الدين في حياة الافراد: (6)

1- الدين عنصر غير ضروري لتكميل القوة النظرية في الانسان، فهو يخرج بالعقل والفكر عن قيد الالماديات المحسوسات الى مجال الغيبيات وهذا تتسع مدارك الانسان ويتفتح عقله على معارف شتى.

2- الدين عنصر ضروري لتكميل الوجدان، حيث يدعو الى التعلق المخلوق بالخالق، وعرفان ماله عليه من فضل ومنة، ومراقبته في السر وهذا التقوى عند الانسان عاطفه الحب والشكر والحياء.

3- الدين عنصر ضروري لقوة الادارة عند الانسان، فهو يمدّها بأعظم مقاومة القنوط.

ان للدين أثر نفسي واجتماعي عميق في نفوس الافراد وتوضح الاهمية بالآتي: (1)

1- ان الدين عقيدة وايمان يترسخ وثبت في الفرد منذ الطفولة عن طريق الاكتساب من الاسرة والمجتمع، ونمو القيم والمشاعر الدينية كلما اقبل الفرد على التمسك بها، ولهذا يصبح الدين في المجتمع بمثابة القلب من الجسد، فالدين يعدهم وسائل ضبط السلوك وتقويم الخلق وتربية الضمير.

2- يزود الدين مؤسسات او نظم البناء الاجتماعي بالعديد من الضوابط والاحكام والقوانين المحددة لسلوكية الفرد والجماعات وعلاقتهم الانسانية، فالدين مثلا تؤثر في النظام الاقتصادي اذ يمدّه بقواعد السلوك الاقتصادي في الاخلاص في العمل وزيادة الانتاج .

3- يؤدي الدين دوره الكبير في السيطرة على سلوكيه الفرد وضبطها طالما الدين هو من الوسائل المهمة في الضبط الاجتماعي.

4- يسهم الدين في قوة شخصية الفرد وتكامل عناصرها التكوينية، بحيث لا تتأثر هذه الشخصية بدوافع الغريزة، وتكون قادرة غي التصدي للعمل المنكر وتسارع في فعل الخير.

5- تمثل الدين نمطا منظما من الثقافة، ويستطيع الفرد ان يواجه ويتغلب على المشاكل لا في الحياة الدنيا وحدها وانما في الآخرة.

ب- أثر الدين في حياة المجتمعات

1- الدين هو هداية الالهية وتشريعات سماوية يكفل للمجتمع الانساني كل عوالم السعادة والامن والاستقرار ولا يحقق ذلك بالتشريع الوضعي.

2- الدين بعد ذلك هو السلطان المهيم على النفوس المؤمنین به، يحملهم على الاخذ بتعاليمه، ويدفعهم الى القيام بما سن لهم من تشريع.

دور الدين في المجتمعات العربية:

1- تعريف الدين الرسمي: هو المعتقدات والممارسات الدينية التاريخية كما يحددها علماء الدين القائمين عليها المجتمع العربي.

المسلمين - السنة (مرجعهم الازهر).

الشيعة (مرجعهم النجف).

المسيحيين - الكنائس والبطريرقيات.

هناك علاقة بين رجال الدين والسلطة السياسية بعدها منحوا رتبا والقابا تدل على مواقعهم الهرمية، وهذا يدل على مراكز القوى الاجتماعية والاقتصادية المختلفة.

2- **التعريف الديني الشعبي:** هو المعتقدات والممارسات الدينية باستقلال نسبي عن المؤسسة الرسمية. وهو شديد التنوع بحسب البيئات والنظم الاجتماعية والاحوال الاقتصادية والانماط المعيشية ويتمركز حول المزارات واضرحة الاولياء والقدسين الصالحين ممن لهم اصول في التاريخ حول شخصيات اسطورية ومن خصوصياته: القداسة - التفسيرات الرمزية - ضعف العلاقة مع العلماء.

وينتشر هذا الدين في الريف والبادية وبين الفقراء والضعفاء وعند النساء الكبيرات في السن ويقوم بين الدين الرسني والدين الشعبي صراع خفي ومعلن يتخذ مظاهر عدة في الحياة اليومية وقد تمكنت المؤسسة الرسمية الدينية والسياسية من منع الممارسات الشعبية في بعض البلدان وخاصة المملكة العربية السعودية.

في حين عرفا (الدين الرسمي والشعبي) تعايشا في بلدان المغرب العربي ولاسيما في الجزائر لرسوخها في حياة الناس فقد كان يمارس ويتجلى في ثقافة الشعبية السائدة بشكل اداة من الادوات المتاحة للشعب في سعيه للتغلب عن المشكلات المستعصية وهذا يبدو خاصة في مراسم الازكار والخلوات واستحضار الجن والتساييح"

وظائف الدين في المجتمع: (7)

1- استخدام الدين كأداة سيطرة:

يشهد في العصر الحالي ان بعض الانظمة السياسية والطبقات الحاكمة تمكنت من استخدام الاسلام كأداة فعالة في تثبيت شرعيتها وسيطرتها. لقد قامت بعض العائلات الحاكمة شرعيتها على الانتساب للنبي (كعائلة السعدية والعلوية في المغرب والعائلة الهاشمية في مشرق العربي)

ان السلطة هي التي تمكنت من الاستفادة من الدين في التاريخ العربي الاسلامي ووظفته كأداة في خدمتها وليس بالضرورة في خدمة الامة وفي سبيل العبادة وفي العصر الحديث لم تكتف الانظمة العربية تعزيز سلطتها بالجيش بل استخدمت الدين والطائفية في تعزيز مواقعها واحتواء المعارضة والقضاء عليها مقرنة ذلك خوف الله بخوف السلطة والشرائع الزمنية بالشرعية الالهية.

ففي مصر ستولى محمد علي على المؤسسة الدينية وجعل العلماء موظفين لدى الدولة في مجالات التنشئة السياسية ومحاربة خصومه ووسيلة للعلاقات العامة

وفي السعودية عمل الملك فيصل على احتواء المؤسسة الدينية والحد من بداخلها في شؤون الدولة ومنجها أخرى عمل على تكوين محور اسلامي كبديل للمحور القومي (الناصرية) من خلال كتابات العلماء، كما بين المعنى العام للمملكة عبرالراير ابن باز في 1994م حقولة المسلمة فهي اداة سيطرة في سبيل الضبط الاجتماعي والسياسي من قبل السلطة والطبقات والعائلات الحاكمة والقوى المرتبطة بها

الحكومة السعودية في تطبيع العلاقات مع اسرائيل كما استعان السادات بفتاوى الازهر في تدعيم كام ديفيد، كمااستعانوا لها في حرب الخليج في الحصول على فتاوى تجيز الاستعانة بقوى غير مسلمة ضد دولة مسلمة

2- استخدام الدين كأداة تحريض:

في يمكن استخدام الدين في التحريض واثارة السخط من قبل القوى التي المعارضة التي تجاهد للوصول الى الحكم، او القوى التي ترعب الاصلاح خاصة في زمن الانحلال الاجتماعي والاقتصادي .وهذا ما ادى بظهور صحوة الاسلامية المتمثلة في الحركات الفكرية والاحزاب السياسية مثل حركة الاخوان في المجتمع العربي و الخمينية التي قامت بالثورة الايرانية فكان لانتصارها تأثير الكسر في انتشار التنظيمات الدينية لجهة الانقاذ في الجزائروالنهضة في تونس والجماعة الاسلامية والجهاد الاسلامي في مصر وحماس في فلسطين وحزب الله في لبنان ولقد تنامت هذه الحركات في الغرب او البعد من السلطة والاعتدال والتطرف في استخدام العنف ولكنها جميعا جاءت نقيضا لتلك التفسيرات والفتاوى التي تسوغ سياسة السلطة القادمة.

ان استخدام الدين كأداة تحريض لا يمكنها فصله عن السياق التاريخي والاجتماعي وعن مصالح وحاجات ومواقع الطبقات.الوسطى التي تزدهر ضمنها هذه الحركات كما تضمن الطبقات الشعبية المكافحة للتغلب على الازمات الحادة التي تعانيها، فالجماعاتالدينية تعمل في الاوساط الشعبية وتستمد الكثير من الدعم من شرائح التجار الصغار والمتوسطي الحال والحرفيين فظهورها مقترن بالأزمات الاقتصادية والسياسية وانكشاف ضعف او اخفاق الطبقات الحاكمة

من الامثلة نجد كتابات سيد قطب حين قال "لو وكللي الامر لإنشاء مدرسة" ولقب "الجاهلية" على كل حكم لا يقر الحاكمية لله وحده ولا يطبق شريعته في نظام حياة.

اما الفكر اليساري الاسلامي فيتمثل في كتابات «على الشريعي» الذي دعا الى التفكير والاجتهاد في سبيل حل المشكلات السياسية والاقتصادية التي نتجت من الحداثة المشوهة في المجتمع الايراني التقليدي، فالمجتمع يحتاج الى مجتمع يعيد تفسير الاسلام بشكل يجعله منسجما مع اهدافه الاصلية اي اقامة نظام اجتماعي تقدمي وعادل. والتحريض لم يشمل الانظمة السياسية فحسب بل الفكر حيث تكفير اي تفسير ديني مخالف لتفسيرات الحركات والجماعات الدينية.

وهي ترفض التغيير التجاوزي والتحديث بل الرجوع الى الماضي والاصالة.

ان التطرف الديني والعصبية هما الوجهة الاخرلسماحة الدين وهذا التطرف والتعصب دمرا سمو الدين وسمو الترابط اجواء الترابط الانساني. (1)

استخدام الدين كأداة مصالحة مع الواقع:

ويمكن استخدام الدين من قبل بعض الطبقات الشعبية المسحوقة العاجزة في تكيفها مع واقعها الاليم المحيط وهذا حين تحول الاوضاع السائدة الطبقات الشعبية الى كائنات عاجزة منشغلة بمهمات تدبير شؤون معيشها، فليس

امامها سوى خيارين اما العنف واما الاستسلام من هنا نلجأ الى الدين لتستمد منه العزاء والقدرة والتحمل والقناعة والرضى والتقليل من أهمية هذه الحياة، مما يؤدي بها الى الاستكانة والمصالحة معالواق، في مثال ذلك كتاب احياء علوم الدين للإمام لابي حامد الغزالي.

من اقوال تمجيد الفقر وتعتبره فضيلة:

ان عملية تسويغ الفقر تتداخل مع نزعة مشابهة تسويغ الفروق الطبقيه على انها نشأتبإرادة الهية.

الدين والتغير الاجتماعي:

لقد ظهرت منذ مطلع النهضة عدة حركات وتنظيمات دينية وسياسية أكثر تعلقا بالتراث وطواعية لان نستخدم اداة سيطرة من قبل الطبقات والعائلات الحاكمة، كالوهابية في الجزيرة العربية، والمهدية في السودان والسنوسية في ليبيا، فأصرت على اسلمة المجتمع والعصر على اعتبار الاسلام دينيا ودولة على تطبيق الشريعة روحا ونصا في مختلف جوانب الحياة. هل يمكن ان يشكل الدين بأوضاعه الحالية في المجتمع العربي المعاصر حركة انقاذ شاملة تقوم بمهمات احداث ثورة اجتماعية، اقتصادية، سياسية في المجتمع العربي المعاصر والانتقاد: هو تحويل المجتمع تحولا شاملا جذريا وتحريره من حالة التخلف بمختلف جوانبه، والتبعية للغرب او اي مركزية خارجية والطبقيه المتزايدة ليس فقط من حيث تزايد الفروق بين الفقراء والاعنياء بل من حيث تفاقم نظرة التعالي، وهيمنة الثقافة القشرية والكرهية التسلطية وحالة الاغتراب التي سلب الانسان والشعب القدرة الابداعية على تحكم بمصيره ومواجهة تحديات العصر.

استقرت فئات من الشعب بإمكانية تحقيق الدين لعملية الانقاذ خاصة بعد فشل الحركات القومية والتقدمية لفترات تاريخية من تحقيق ذلك بعد سلسلة من الازمات والانهمامات بالقومية وزادهم استئثار (انتصار الثورة الايرانية بإزالة حكم الشاه والوصول الى الحكم.

يول سعد الدين ابراهيم " ان الدين الاسلامي كمعظم الديانات السماوية العظمى له ممارسة وجهان: أحدهما يركز على الغيبيات والسلفية يقاوم التغير... والوجه الاخر في الممارسة.

هو الاسلام الثوري الذي يركز على العدالة والتقدم... وكل ما يدعو اليه هذا الاسلام يتلقى بل يتطابق، مع دعوة القومية العربية الحديثة تتداخل الهويات القومية والدينية تدخلا مثلا يجعل منهما في واقع الامر هوية واحدة " ان الدين ليس قادرا كحركة اجتماعية وليس كنصوص قادرة في اوضاعه الحالية على ان يشكل حركة انقاذ عربية ثورية شاملة وهذا لعدة اسباب.

تحول الدين من معركة ثورية في بداياته الى مؤسسة مرتبطة بالأنظمة القائمة.

2-ان واقع العالم المعاصر واقع قوميات ومجتمعات متنوعة وتعددية في تكوينها وانتمائها وليس واقع جماعات دينية، لذلك يأتي المجتمع اولا وتكون التعاضد ضروريا بين افراده وجماعاته مهما اختلفت الانتماءات الدينية والطافية.

3-ان واقع الاجتماعية هو واقع طائفي أكثر مما هو واقع ديني.

4-يعاني الدين على صعيد الممارسة في الحياة اليومية انتقاصا بين الدين الرسمي والدين الشعبي وبينهما والدين السياسي.

5-ان القناعات والمعتقدات الدينية كما تقدمها المؤسسة وطبقة العلماء تتعارض مع روح العصر بقول علل الفاسي "ان قضية الدين هي مسألة مسائل في العالم، او هي لا شيء بالنسبة اليه، اي اما ان تكون هي الفكرة المالكة لكل الشؤون واما لا تكون بالمرّة"

6- ان التساؤل والبحث هما اساس التحديد وهي قاعدة علمية فهل نستثني الدين كموضوع للتساؤل والبحث والاستكشاف والابداع

7- كان دائما من مهمات الثورة الصراع من اجل تجاوز حالة الاغتراب التي يعانيها الانسان في ظل الانظمة القصرية وما نجده ان هناك نوعين من الاغتراب 1- الاغتراب من الدين بمعنى رفض المؤسسة الدينية التقليدية والخروج عليها خاصة في محاولتها مقاومة التغيير .

ب- اغتراب في الدين بمعنى ان المؤمن اصبح ينتسب قواه الذاتية الى قوى خارج نفسه ويسلمها بمصيره باستقلال عنه .وبقدرها يسقط الانسان ذاته على معبوداته تصبح المؤسسة الدينية قوية وغنية والمقابل اصبح الفرد فقيرا في قدراته المادية والروحية والفكرية

طغت الطقوسية في العادة فلم يعد في الممارسة الدينية من تمييز بين الوسائل والغايات والظاهر والمخفي، والجوهري والتفصيلي فأصبحت كل هذه متساوية في دلالاتها وقيمتها ووظائفها .

كما طغت الطقوسية في العبادة فلم يعد في الممارسة من تمييز بين الوسائل والغايات -بقدر ما تسود التنشئة الدينية التي تدعو لطاعة والامتثال، يفقد المؤمن القدرة على الابداع واتخاذ المبادرة والقيادة والعمل على استشراف المستقبل، بل في ظل هذه التنشئة قد يرى المؤمن نفسه عاقلا بقدر ما يرضخ ويطيع ويقبل بالأمر الواقع ويستسلم لمشئته غير مشيئة. هناك تعطيل لطاقة الابداع

يعترب المؤمن في ذاته ودينه بقدرها ما تتمكن السلطة السائدة من استخدام الدين اداة للسيطرة ولكن عندما يطبق الدين بتعاليمه الصحيحة واسقاطه على الواقع وفقا للفهم السليم عنها "يتحول المعتقد الدين الى سلوك عملي واقعي متجسد في تصرفات اتباعه...فالحق عندما يكون مشاهدا في شكل افعال قويمه، وعمراناجتماعي راق واخلاق طيبة،فانه يكون مجرد نظريات او خطب "

فالمجتمعات الاسلامية اليوم مطالبة بحسن السلوك لتبرر ايجابية الاسلام بشكل علمي طبقا لما جاءت به الشريعة الاسلامية السمحة، فالسلوك الافراد يحدد سلوك الجماعة.

الخاتمة:

الدين شريعة سماوية وليست ظاهرة لأنه لا يتغير بتغير الظروف والعوامل كباقي الظواهر الاجتماعية بل هو ثابت بمبادئه، ولكن واقع الممارسات يبين ان الدين يتغير بل ويتبدل حسب الاحوال والمصالح، فالسلطة السياسية في المجتمعات التقليدية تستخدمها كأداة للسيطرة وفرض قوتها بطريقة تبريرية تستمد قوتها من الدين وهذا ما ادى الى ظهور جماعات وطوائف دينية تنتهج طرق واساليب تتوافق وتحقق مصالحها .

ويما ان الدين سامي وراق فان سلوك المسلم يجب ان يكون ساميا وراقيا في معاملته مع الاخرين حتى يتحقق الامن والاستقرار في المجتمع

قائمة المراجع:

- 1-زيدان عبد الباقي، علم الاجتماع الديني، مكتب غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ب.ت، ص.53
- 2-محمد احمد البيومي، علم الاجتماع الديني، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 2008، ص.42
- 3-زيدان عبد الباقي، مرجع سابق، ص.55، 94
- 4-طارق كمال، اساسيات في علم الاجتماع الديني، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 2009، ص.133
- 5-محمد احمد البيومي، مرجع سابق، ص.352
- 6-طارق كمال، مرجع سابق، ص.131
- 7-محمد احمد البيومي، مرجع سابق، ص.357-358
- 8-حليم بركات، المجتمع العربي-دراسة في احوال والعلاقات الاجتماعية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص.360-390.